الْفَصْلُ الأَوَّلُ

ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ

الْفَصْلُ الْأَوَّلُ

ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ بِأَشْرَاطِ السَّاعَةِ

إن قيامَ الساعةِ الذي يعني نِهَايَةَ نِظَامِ هذا العالم، هو من أعظم الأحداث بعد خلق العالم، بل إن تغيير النظام الكوني وإيجاد نظام آخر، حَدَثٌ يَعْدِلُ خلقَ العالم أول مرة؛ ولذلك تسبقه أحداثٌ كبرى خارقةٌ للعادة، تكون كالمقدمة له. والإيمان بأشراط الساعة داخلٌ ضمن الإيمان باليوم الآخر؛ فهي من الإيمان بالغيب؛ ولهذا الإيمان ثمراتٌ وفوائِدُ نحاول أن نُجْمِلَهَا فيما يلي:

أولًا: تحقيق ركن من أركان الإيمان الستة، وهو الإيمان باليوم الآخر، باعتبار أن أشراط الساعة من مقدماته، كما أنها من الإيمان بالغيب الذي قال فيه ـ عز وجل ـ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣]، وقال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيُؤْمِنُوا بِي وَبِمَا جِئْتُ بِهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»(١)، وقد فصلنا هذا فيما سبق(٢).

ثَانِيًا: إشباع الرغبة الفطرية في الإنسان التي تتطلع لاستكشاف ما غاب عنه(٣)، واستطلاع ما يحدث في المستقبل من وقائع وكائنات، وإذا كان الإسلام سَدَّ طُرُقَ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) راجع ص (١٧، ١٦٣).

(٣) ونحن نرى الجهود الهائلة التي يبذلها العلماء المعاصرون؛ للكشف عن الغيب المجهول في الماضي البعيد، والغيب المجهول في الحادثات المقبلة، والغيب المجهول في «الفضاء» المحيط بنا؛ فيصنعون المناظر المكبرة، والمراصد الهائلة، ويطلقون سفن الفضاء، والأقمار الصناعية؛ كي يعلموا ما لا يعلمون؛ فلا شك أن الاطلاع على حقائق هذا الغيب من الجهة المعصومة التي لا تخطئ، ولا تكذب أبدًا ـ وهي الوحي الصادق ـ أولى وأحرى، قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ۝﴾، [الملك: ١٤]، إن الإنسان يتشوف دومًا إلى رؤية ما سمع عنه؛ فإن عجز، فربما أبدع خياله التصورات، حتى لو كان تخيله سخيفًا، لكنه يظن أن تخيلاته تسد جَوْعَة عقله، وتشبع فضوله؛ فعندما جهل الإنسان كيفية حدوث الزلازل زعم أن الأرض محمولة على قرن ثور عظيم؛ فإذا تعب من حملها، نقلها =

الدجالين الذين يدَّعون الاطلاع عليها؛ كالمنجمين، والعرَّافين، والكُهَّان، ونحوهم، إلا أنه ـ استجابة لأشواق الفطرة ـ أطلعنا ـ من خلال نافذة الوحي ـ على كثير من هذه الأحداث(١).

ثالثًا: أن الإخبار عن الغيوب المستقبلة ـ باعتبار ما فيها من خرقٍ للعادة ـ من أهم دلائل النبوة؛ حيث إنها تتضمن تحدِّيًا لعقول البشر أجمعين، فهذه أمور غيبية لا تُدْرَكُ بالعقل، ولا يمكن معرفة كُنْهِهَا على الحقيقة إلا من خلال الوحي الصادق من الله ـ تعالى ـ، إلى رسوله ﷺ، وقد صدرت منه لا على أنها توقعات تعتمد على مقدمات تؤدي إلى نتائجها، وإنما هي حديثٌ دقيقٌ قاطعٌ عن تفاصيل المستقبل المجهولِ، حديثًا لا يَخْرِمُهُ المستقبل، ولا في جزء من أجزائه، وحينئذٍ فلا شَكَّ أنها النبوة، وأن صاحبها مُتَّصِلٌ بالله ـ تعالى ـ عالم الغيب والشهادة؛ كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ الآيتين [الجن ٢٦ ـ ٢٧] .

ومن ثمرات وقوع تلك المُغَيَّبَاتِ ـ على كثرتها ـ مُطَابقَةً لخبر الصادق المصدوق ﷺ أن يثبت إيمان المؤمن، ويطمئن قلبه، ويزداد يقينه، ويقول كما قص الله عن المؤمنين: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]

ومن ثمرات ذلك ـ أيضًا ـ إقامة الحجة على الكافرين، وإقناعهم بصدق نبوة ورسالة محمد ﷺ إلى العالمين.

رَابِعًا: تَعَلُّمُ الكيفية الصحيحة التي دَلَّنَا عليها رسول الله ﷺ، كي نتعاملَ بها مع بعض الأحداث المقبلة التي قد يلتبس علينا وجه الحق فيها.

= إلى قرنه الثاني؛ فتهتز وهو ينقلها.

أما الذي يتنزه عن الخيالات، والظنون؛ فإنه لا يَبْتَدِعُ التخيلات؛ كي لا يهدر طاقته العقلية فيما لا طائل من ورائه، ولكنه يتحمل عبء الغموض، ويصبر حتى يجعل الله له مخرجًا، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، الآيات، [البقرة: ٢٦٠].

(١) انظر: «المقدمة»، لابن خلدون، ص (٥٨٧ ـ ٥٨٨).

قال - تعالى -: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وعن عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: «كنا مع رسول اللهﷺ في سَفَرٍ، فنزَلْنا منزلًا»... الحديثَ، وفيه: «إذ نادى منادي رسول اللهﷺ: «الصلاة جامعة»، فاجتمعنا إلى رسول اللهﷺ، فقال: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي، إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرِ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَإِنَّ أُمَّتَكُمْ هَذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا فِي أَوَّلِهَا، وَسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلَاءٌ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وَتَجِيءُ فِتْنَةٌ، فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: «هَذِهِ مُهْلِكَتِي»، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ، فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: «هَذِهِ، هَذِهِ»، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَيُدْخَلَ الْجَنَّةَ، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَلْيَأْتِ إِلَى النَّاسِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إِلَيْهِ»... الحديثَ[١].

لقد نصح رسول اللهﷺ أصحابه الذين عاصروه نصائحَ انتفعوا بها كثيرًا:

- فقد بَشَّرَ عثمانَ رضي الله عنه بالجنة على بلوَى تصيبه.

- وأخبر عمَّارًا رضي الله عنه أنه تقتله الفئة الباغية.

- وأمر أبا ذرٍّ رضي الله عنه بأن يعتزلَ الفتنة، وأن لا يقاتل ولو قُتِلَ.

- وكان حذيفةُ رضي الله عنه يسأله عن الشر، مخافةَ أن يدرِكَهُ، ودلَّهﷺ كيف يفعل في الفتن.

- ونهى المسلمين عن أخذ شيء من جبل الذهب الذي سوف ينحسر عنه الفرات.

- وبصَّر أمته بفتنة الدجال، وأفاض في وصفها، وبَيَّنَ لهم ما يعصمهم منها؛ ومن ثم قال عبدالرحمن المحاربي: «ينبغي أن يُدْفَعَ هذا الحديثُ[٢] إلى المؤدِّب حتى يُعَلِّمَه الصبيان في الكُتَّاب»[٣]، وقال السفاريني - رحمه الله -: «مما ينبغي لكل عالم أن يبث

(١) رواه مسلم (١٨٤٤)، وأبو داود (٤٢٤٨)، والنسائي، (١٥٣/٧).
(٢) يعني حديث أبي أمامة رضي الله عنه في شأن الدجال.
(٣) رواه ابن ماجه (٥١٦/٢).

أحاديث الدجّال بين الأولاد، والنساء، والرجال، ولا سيما في زماننا هذا الذي اشرأبت فيه الفتن، وكثرت فيه المحن، واندرست فيه معالم السنن». اهـ[(١)].

وامتدت شفقته ﷺ؛ لتشمل إخوانه الذين يأتون من بعده، ولم يروه؛ فبذل لهم النصح، ودلَّهم على ما فيه نجاتهم، وحسنُ عاقبتهم[(٢)].

فمن ذلك قوله ﷺ: «اتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ»... الحديثَ[(٣)].

فمن ثم أمسك المسلمون عن استفزاز واستثارة الترك، فَسَلِمُوا من غائلتهم، إلى أن خالفوا التوجيهَ النبوي، قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ:

«وقد قَتَلَ ـ جنكيزخان ـ من الخلائق ما لا يَعْلَمُ عددهم إلا الذي خلقهم، ولكن كان البُداءة من «خوارزم شاه»، فإنه لما أرسل جنكيزخان تُجَّارًا من جهته معهم بضائعُ كثيرةٌ من بلاده، فانتهوا إلى إيرانَ، فقتلهم نائبها من جهة خوارزم شاه، وأخذ جميعَ ما كان معهم، فأرسل جنكيزخان إلى خوارزم شاه يستعلمه: هل وقع هذا الأمر عن رضًى منه، أو أنه لا يعلم به؟ فأنكره. وقال فيما أرسل إليه: «من المعهود من الملوك أن التجار لا يُقتلون؛ لأنهم عمارةُ الأقاليم، وهم الذين يحملون إلى الملوك ما فيه التحف والأشياء النفسية، ثم إن هؤلاء التُّجَّار كانوا على دينك، فقتلهم نائبك، فإن كان أمرًا أمرتَ به، طلبنا بدمائهم، وإلا فأنت تُنكِرُهُ، وتقتصُّ من نائبك»، فلما سمع خوارزم شاه ذلك من رسول جنكيزخان، لم يكن له جوابٌ سوى أنه أمر بضرب عُنُقِهِ، فأساء التدبيرَ، وقد كان خَرِفَ وكَبُرَتْ سِنُّه، وقد ورد الحديث: «اتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ»، فلما بلغ ذلك جنكيزخان، تجهز لقتاله، وأَخْذِ بلادِهِ، فكان بِقَدَرِ الله ـ تعالى ـ ما كان من الأمور التي لم يُسْمَعْ بأغرَبَ منها، ولا أبشعَ»[(٤)].

---

(١) «لوامع الأنهار البهية»، (٢/ ١٠٦ ـ ١٠٧).

(٢) انظر شيئًا من ذلك بهامش ص (٥٩٨).

(٣) عجز حديث رواه أبو داود، رقم (٤٣٠٢)، في كتاب الملاحم، باب «في النهي عن تهييج الترك والحبشة»، وحسَّنه الألباني في «صحيح أبي داود»، (٣٦١٥)، وانظر: «السلسلة الصحيحة»، (٧٧٢).

(٤) «البداية والنهاية»، (١١٩/١٣).

فهنا نرى أن المسلمين لما خالفوا أمر النبي ﷺ بترك التُّرك؛ جاءت العاقبةُ عنيفةً مريرةً؛ حيث اجتاح التتار ديار الإسلام في كارثة لم يسبق لها مثيل في التاريخ(١).

وفي أكثر من موضع ذكر الحافظ ابن كثير وقائع القتال بين المسلمين والتتار، وبيَّن أن المسلمين لم يكونوا يتعقبون التتار إذا فروا هاربين أمامهم، ولو كانت الرماحُ تنالهم؛ ومثال ذلك ما ذكره في حوادث سنة ثلاث وأربعين وست مئة: «وفي هذه السنة كانت وقعةٌ عظيمةٌ بين جيش الخليفة وبين التتار ـ لعنهم الله ـ؛ فكسرهم المسلمون كسرةً عظيمةً، وفَرَّقُوا شملهم، وهُزِمُوا من بين أيديهم، فلم يلحقوهم؛ ولم يتبعوهم، خوفًا من غائلة مكرهم، وعملًا بقوله ﷺ: «اتْرُكُوا التُّرْكَ مَا تَرَكُوكُمْ»(٢).

خامسًا: فتح باب الأمل، والاستبشار بحسن العاقبة لأهل الإيمان، إذا ادْلَهَمَّتِ الخطوب، وضاقت الصدور، مما يعطي المسلمين طاقة يصارعون بها ما يسميه المتخاذلون «الأمر الواقع»؛ ليصبح عزهم ومجدهم هو الأمر الواقع؛ وذلك بناءً على البشارات النبوية بالتمكين للدين، وظهوره على الدين كله، ولو كره الكافرون.

سادسًا: قد تمرُّ بالمسلمين وقائع في مقبل الأيام تحتاج إلى بيان الحكم الشرعي فيها، ولو تُرِكَ المسلمون إلى اجتهادهم؛ فإنهم قد يختلفون، وربما يكون بيان الحكم الشرعي في تلك الأحداث واجبًا لابد منه، وعدم البيان يكون نقصًا تُنَزَّهُ الشريعة عنه.

فمن ذلك: أن رسول الله ﷺ أخبر أن الدجَّال يمكث في الأرض أربعين يومًا، يومٌ من أيامه كسنة، ويومٌ كشهر، ويومٌ كأسبوع، وبقيةُ أيامه كأيامنا، وقد سأل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ رسول الله ﷺ عن تلك الأيام الطويلة: أتكفي في الواحد منها صلاةُ يوم؟ فقال ﷺ: «لَا، اقْدِرُوا لَهُ قَدْرَهُ»، ولو وُكِّل العباد إلى اجتهادهم، لاقتصروا على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غير هذه الأيام.

---

(١) انظر تفصيل ذلك في «السابق»، (١٣/ ٨٦ ـ ٩١).
(٢) «السابق»، (١٣/ ١٦٨).

وأخبر الرسول ﷺ أن عيسى ـ عليه السلام ـ بعد نزوله لا يقبل الجزية من اليهود والنصارى، ولا يقبل منهم إلا الإيمان، وهذا البيان من الرسول ﷺ ضروري؛ لأن عيسى يحكم بهذا الشرع، وهذا الشرع فيه قبولُ الجزية ممن بَذَلَهَا إلى حين نزول عيسى ابن مريم، وحين ذاك تُوضَعُ الجزية، ويُقتل كل من رفض الإيمان، ولو بَذَلَ الجزية(١).

كما أن نص رسول الله ﷺ على صفاتٍ معينةٍ لأشخاصٍ معينين؛ كالمهدي ـ مثلًا ـ، يمدنا بالمعيار اللازم للحكم على الدجّالين المدعين المهديةَ، حتى لا نتورَّطَ في فِتَنِهِمْ.

● **لَا يَعْلَمُ مَتَى السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ:**

قال ـ تعالى ـ : ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧].

فقوله ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾، وقوله ـ عز وجل ـ: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ (فيه إيذان بأن ما هو من شأن الرب لا يكون للعبد؛ فهو ـ تعالى ـ قد رباه ليكون منذرًا ومبشرًا، لا للإخبار عن الغيوب بأعيانها وأوقاتها، والإنذارُ إنما يُناطُ بالإعلام بالساعة وأهوالها، والنار وسلاسلها وأغلالها، ولا تتم الفائدة منه إلا بإبهام وقتها؛ ليخشى أهل كل زمن إتيانها فيه، والإعلام بوقت إتيانها، وتحديدُ تاريخها، ينافي هذه الفائدة، بل فيه مفاسدُ أخرى؛ فلو قال الرسول ﷺ للناس: «إن الساعة تأتي بعد ألفي سنة من يومنا هذا» ـ مثلًا ـ، وألفا سنة في تاريخ العالم، وآلاف السنين، تُعَدُّ أجلًا قريبًا ـ لرَأَى المكذبين يستهزئون بهذا الخبر، ويلحون في تكذيبه، والمرتابين يزدادون ارتيابًا، حتى إذا ما قَرُبَ الأجل، وقع المؤمنون في رعب عظيم يُنَغِّصُ عليهم حياتهم، ويوقع الشلل في أعضائهم، والتشنجَ في أعصابهم، حتى لا يستطيعون عملًا،

(١) انظر: «القيامة الصغرى»، للدكتور/ عمر الأشقر ـ حفظه الله ـ ص (١٣٢).

ولا يسيغون طعامًا ولا شرابًا، ومنهم من يخْرجُ من ماله وما يملكه، في حين يكون الكافرون آمنين، يسخرون من المؤمنين...

فالحكمة البالغة - إذن - في إبهام أمر الساعة للعالم، وكذا الساعة الخاصة بأفراد الناس، أو بالأمم والأجيال، أو جعلها من الغيب الذي استأثر الله - تعالى - به). اهـ[1].

وقوله - تعالى -: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ معناه: لا يكشف حجاب الخفاء عنها، ولا يظهرها في وقتها المحدود عند الرب - تعالى - إلا هو، فلا وساطةَ بينه وبين عباده في إظهارها، ولا في الإعلام بميقاتها، وإنما وساطة الرسل - عليهم السلام - في الإنذار بها[2].

ونقل الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله - عن الآلوسي - رحمه الله - قوله: «وإنما أخفى - سبحانه - أمر الساعة لاقتضاء الحكمة التشريعية ذلك؛ فإنه أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، كما أن إخفاء الأجل الخاص للإنسان كذلك، ولو قيل بأن الحكمة التكوينية تقتضي ذلك - أيضًا - لم يبعد، وتدلُّ الآيات على أنه ﷺ لم يَعْلَمْ وقت قيامها، نعم علم ﷺ قربها على الإجمال، وأخبر ﷺ به»[3].

وقال صاحب المنار - رحمه الله - تعالى - أيضًا -:

(فيجب على المؤمنين أن يخافوا ذلك اليومَ، وأن يحملهم الخوف على مراقبة الله - تعالى - في أعمالهم؛ فيلتزموا فيها الحقَّ، ويتحروا الخيرَ، ويتقوا الشرور والمعاصي، ولا يجعلوا حظهم من أمر الساعة الجدالَ، والقيل والقالَ، وإننا نرى بعض المتأخرين قد شغلوا المسلمين عن ذلك ببحث افتجره بعض الغلاة، وهو أن النبي ﷺ لم يَبْقَ طولَ عمره لا يعلم متى تقوم الساعة؟ كما تدلُّ عليه آيات القرآن الكثيرة؛ بل أعلمه الله -

(١) «تفسير المنار»، (٩/٣٨٩ - ٣٩٠).
(٢) «السابق»، (٩/٣٩٠).
(٣) «السابق»، (٩/٣٩٣) بتصرف.

تعالى ـ به، بل زعم أنه أطلعه على كل ما في علمه، فصار علمه كعلم ربِّه[(١)]، أي صار نِدًّا وشريكًا للَّه ـ تعالى ـ في صفة العلم المحيط بالغيوب التي لا نهاية لها، ومن أصول التوحيد أنه ـ تعالى ـ لا شريكَ له في ذاته، ولا في صفة من صفاته، والرسول ﷺ عبد اللَّه، لا يعلم من الغيب إلا ما أوحاه اللَّه ـ تعالى ـ إليه؛ لأداء وظيفة التبليغ، ولكن الغلاةَ يرون من التقصير في مدح النبي ﷺ وتعظيمه أن تكون صفاته دون صفات ربه وإلهه، وخالق الخلق أجمعين، فكذَّبوا كلام اللَّه ـ تعالى ـ، وشبَّهوا به بعض عبيده؛ إرضاءً لغلوهم، ومثل هذا الغلو لم يُعْرَفْ عن أحد من سلف هذه الأمة، ولو أراد اللَّه ـ تعالى ـ أن يُعْلِمَ رسوله ﷺ بوقت قيام الساعة، بعد كل ما أنزله عليه في إخفائها، واستئثاره بعلمه، لما أكَّده كلَّ هذا التأكيد في هذه السورة وغيرها؛ كقوله ـ عز وجل ـ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ اهـ[(٢)].

● الْحِكْمَةُ فِي تَقْدِيمِ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ وَدِلَالَةِ النَّاسِ عَلَيْهَا:

ثبت في حديث جبريلَ المشهورِ أنه قال لرسول اللَّه ﷺ: «فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ»، فقال ﷺ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»، قال: «فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا»[(٣)]، وفي رواية قال: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا»... الحديثَ[(٤)].

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «والحكمة في تقدم الأشراط إيقاظُ الغافلين، وحثُّهم على التوبةِ والاستعداد»[(٥)].

ونقل القرطبي ـ رحمه اللَّه ـ عن العلماء قولهم: «والحكمة في تقديم الأشراط ودلالة

---

(١) راجع ص (٢٨٢ ـ ٢٨٣).

(٢) «السابق»، (٩/٣٩١ ـ ٣٩٢).

(٣) روى هذا اللفظ مسلم في «صحيحه»، (٨).

(٤) رواه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

(٥) «فتح الباري»، (١١/٣٥٠).

الناس عليها؛ تنبيهُ الناس عن رقدتهم، وحثُّهم على الاحتياط لأنفسهم بالتوبة والإنابة؛ كي لا يُبَاغَتُوا بالْحَوْلِ بينهم وبين تدارك العوارض منهم، فينبغي للناس أن يكونوا بعد ظهور أشراط الساعة قد نظروا لأنفسهم، وانقطعوا عن الدنيا، واستعدوا للساعة الموعود بها، والله أعلم، وتلك الأشراط علامةٌ لانتهاء الدنيا وانقضائها»(١).

* * *

(١) «التذكرة»، ص (٦٢٤).

فَصْلٌ

سُوءُ فَهْمِ الْعَوَامِّ لِعَقِيدَةٍ لَا يَسُوغُ إِنْكَارُهَا أَوْ تَأْوِيلُهَا

ذلك أن بعض الناس يجعلون تصديقهم بأمر المهدي مُسَوِّغًا لإعراضهم عن الدعوة إلى الإسلام، وإنكارِ المنكرات، ومنهم من يُسْقِطُ التكاليفَ، ويهدرها؛ مُدَّعين أنهم ينتظرون خروجَ المهدي؛ ليغير وجه العالم. نقول لهؤلاء: إن الأمور الكونية القدرية التي أخبر بها الوحي واقعةٌ لا محالة، وغاية ما كلَّفنا اللَّه به إزاءها التصديقُ بها قبل وقوعها، والالتزامُ بما نصحنا به رسول اللَّه ـ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم ـ بعد وقوعها[١]، ولم يأمرنا قطُّ بتكلُّف إيجادها، وهناك الكثير من العقائد الثابتة قد يسيء العوام فهمها؛ فيترتب على ذلك الانحرافُ عن الصراط المستقيم، وما مَثَلُ الاعتقاد في ظهور المهدي، ونزول عيسى ـ عليه السلام ـ، إلا كَمَثَلِ الاعتقاد في القضاء والقدر؛ فقد يسيء الكثيرون فَهم هذه العقيدةِ، وبدلًا من أن تكون حافزًا على الجد، والاجتهاد، والتسابق إلى الطاعات، اتخذوها مَطِيَّةً إلى التواكل، وإهدار التكاليف، بل منهم من استحلَّ بها المحرماتِ، فهل يُعالَج هذا بإنكار الاعتقاد في القضاء والقدر؛ كما زعمت القدرية؟ كيف وهو من أصول الإيمان الستة؟ بل الصواب أن نؤمن بالقدر ونثبته؛ فلا يصح بحال أن نحتجَّ بالقدر في مخالفة الشرع الحنيف، وإبطال تكاليفه؛ كما هو شأن المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾... الآيةَ [الأنعام: ١٤٨]، والذين قال اللَّه فيهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾... الآيةَ [يس: ٤٧]، وقد رد اللَّه ذلك عليهم،

(١) وذلك مثل أمره ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وعلى آله وسلم ـ مَن سمع بالدجال أن ينأى عنه، ومن أدركه أن يقرأ عليه فواتح سورة الكهف، وكذا أمره المؤمنين ـ من حضر منهم انحسار الفرات عن كنز من ذهب ـ ألَّا يأخذ منه شيئًا .

وأبطله، ولم يقبلْهُ منهم. والحاصلُ أن العدل هو الوسط؛ فنصدقُ بما أخبر به الصادق المصدوق - صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - على وجهه؛ فلا ننفي ما أثبته، ولا نثبت ما نفاه، ولا نفتري عليه الكذبَ بالأحاديث الموضوعة، والأقوال المتهافتة، ولا نَعْرِض لسنته - صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - بالشبهات المُغْرِضَةِ، ولا نحتج بأخباره على إبطال شرعه، ونقض أحكامه؛ فإن اللَّه - عز وجل - لم يجعل لعمل المؤمن منذ كُلِّف أجلًا دون الموت: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

يتضح مما تقدم أن الإيمان بأشراط الساعة يُحَفِّزُ على الاجتهاد في الأخذ بأسباب النجاة، واستفراغ الوُسْعِ في الاستعداد للقاء اللَّه - تعالى - بالأعمال الصالحة، والسعي لتمكين دين اللَّه في الأرض، وذلك بخلاف ما يحصل من بعض الناس الذين يتكئون على أشراط الساعة، ويتوقفون عن العمل والسعي؛ بحجة انتظار المهدي، ونزول عيسى - مثلًا -؛ تمامًا كما يحصل من الكسالى، الذين يسيئون فهم قضية «القضاء والقدر»، ويتخذون منها وسيلة لتسويغ تواكلهم، وتوانيهم، وتقصيرهم.

ومن الأدلة الواضحة على أن التصديق بأشراط الساعة ينبغي أن يكون حافزًا للعمل والاجتهاد:

- ما رواه أبو هريرة ﷺ: قال رسول اللَّه ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: طُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، أَوِ الدُّخَانَ، أَوِ الدَّجَّالَ، أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ، أَوْ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[1]، وفي رواية: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا: الدَّجَّالَ، وَالدُّخَانَ، وَدَابَّةَ الْأَرْضِ، وَطُلُوعَ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَأَمْرَ الْعَامَّةِ، وَخُوَيْصَةَ أَحَدِكُمْ».

وقوله ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا»: أي سابقوا ستَّ آيات دالة على وجود القيامة، وسارعوا بالأعمال الصالحة قبل وقوعها وحلولها؛ فإن العمل بعد وقوعها وحلولها لا يُقبل، ولا يُعتبر.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤٧)، (٤/٢٢٦٧).

وقوله ﷺ : «أَوْ خَاصَّةَ أَحَدِكُمْ»، وفي رواية: «خُوَيْصَةَ»: تصغير خاصة الإنسان؛ وهي ما يَخُصُّهُ دون غيره، وأراد به الموتَ، الذي يخصُّه، ويمنعه من العمل، إن لم يبادر به قبله(١) .

وصُغِّرت لاستصغارها في جنب سائر العظائم؛ من بعث، وحساب، وغيرهما.

قال القاضي: «أمرهم أن يبادروا بالأعمال قبل نزول هذه الآيات؛ فإنها إذا نزلت أدهشت، وأشغلت عن الأعمال، أو سُدَّ عليهم باب التوبة، وقبول العمل»(٢) .

قال العلائي: «مقصود هذه الأخبار الحث على البِدَاءة بالأعمال قبل حلول الآجال، واغتنام الأوقات قبل هجوم الآفات»(٣) .

وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ: يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا»(٤) .رواه مسلم.

وعن أم سلمة ـ رضي اللَّه عنها ـ أن النبي ﷺ استيقظ ليلة، فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ؟ مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ؟ يَا رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ»(٥) .

فقوله ﷺ : «مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ»... إلخ، يفهم منه إيقاظهن للصلاة والتهجد؛ لمدافعة الفتن، كما قال ـ تعالى ـ : ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾... الآيةَ [البقرة: ٤٥].

وبلغ حرصُ رسول اللَّه ﷺ على حث المسلمين على العمل المثمر ـ ما أمكن العمل ـ إلى حد قوله ﷺ : «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَفِي يَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ(٦) ، فَإِنِ اسْتَطَاعَ

(١) «جامع الأصول»، (٤١٢/١٠).
(٢) «فيض القدير»، (١٩٤/٣).
(٣) «السابق»، (١٩٥/٣).
(٤) رواه مسلم (١١٨)، في الإيمان.
(٥) رواه البخاري (١١٢٦)، (١٠/٣ـ فتح).
(٦) الفسيلة: النخلة الصغيرة.

أَنْ لَا يَقُومَ[1] حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَغْرِسْهَا»[2]، فإذا كان هذا والحياةُ تَلْفِظُ أنفاسها الأخيرةَ، فكيف إذا كان بيننا وبين الساعة آمادٌ مجهولةٌ لا يعلمها إلا اللّه - تعالى -؟

فالمسلمُ يَغْتَنِمُ لحظته الحاضرةَ بقطع النظر عن ماضٍ تولَّى، ومستقبلٍ هو غيبٌ، قال الشاعر:

إِنَّمَا هَــذِهِ الْحَيَــاةُ مَتَـاعٌ ... فَالْجَهُولُ الْمَغْرُورُ مَنْ يَصْطَفِيهَا
مَا مَضَى فَاتَ وَالْمُؤَمَّلُ غَيْبٌ ... وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا

وعن داود قال: قال لي عبداللّه بن سلام: «إن سمعت بالدجّال قد خرج وأنت على وَدِيَّةٍ[3] تغرسها، فلا تعجل أن تصلحه؛ فإن للناس بعد ذلك عيشًا»[4].

وروى ابن جرير عن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي: «ما يمنعك أن تغرس أرضك؟»، فقال له أبي: «أنا شيخ كبير أموت غدًا»، فقال له عمر: «أَعْزِمُ عَلَيْكَ لَتَغْرِسَنَّهَا»، فلقد رأيت عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه يغرسها بيده مع أبي[5].

وعن الحارث قال: كان الرجل منا تُنْتَجُ فرسُه فينحرها، فيقول: أنا أعيش حتى أركب هذا؟! فجاءنا كتاب عمر رضي الله عنه: «أن أصلحوا ما رزقكم اللّه، فإن في الأمر تنفسًا»[6].

---

(١) أي: من محله الذي هو جالس فيه.

(٢) رواه الإمام أحمد (١٨٣/٣)، والطيالسي (٢٠٦٨)، والبخاري في «الأدب المفرد»، (٤٧٩)، وصححه الألباني على شرط مسلم في «الصحيحة»، رقم (٩).

(٣) وَدِيَّة: الفسيلة الصغيرة.

(٤) قال الألباني: «سنده صحيح» ا هـ. من «الصحيحة»، (١٢/١).

(٥) عزاه الألباني إلى «الجامع الكبير»، للسيوطي، (٢/٣٣٧/٣).

(٦) «صحيح الأدب المفرد»، (٣٧٠)، ص (١٨٠).

تَنْبِيهٌ:

لا شك أنه كلما تقدم الزمن فإنا نصير أقربَ إلى الأشراط التي لم تقع، وهذا يستوجب مزيدًا من الحذر والاستعداد، ولعل أخطرَ هذه الأشراط طلوعُ الشمس من مغربها، وهو المقصود بقوله ـ تعالى ـ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال رسول اللَّه ﷺ «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت، فرآها الناس؛ آمنوا أجمعون، فذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا»(١).

وقال ﷺ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ، وَلَا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَإِذَا طَلَعَتْ، طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ، وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ»(٢).

قال الحافظ ابن كثير ـ رحمه اللَّه ـ: «إذا أنشأ الكافر إيمانًا يومئذ لا يُقْبَلُ منه، فأما من كان مؤمنًا قبل ذلك، فإن كان مصلحًا في عمله، فهو بخير عظيم، وإن كان مُخَلِّطًا فأحدث توبةً حينئذ، لم تُقبل منه توبة»(٣).

فهذا غاية أجل التوبة في حق عمر الدنيا، أما غايته في حق كل إنسان فَبَيَّنَهُ قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»(٤)، أي: ما لم تبلغ رُوحُهُ حُلْقُومَهُ.

وعليه فإن الواجب على المؤمن أن يميز بين ما يَعْنِيهِ، وما لا يَعْنِيهِ، وقد قال رسول اللَّه ﷺ: «إِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»(٥)، ومن صور اشتغال المرء بما لا يعنيه أن يديمَ البحث: متى الساعة؟ مع أنه غيبٌ استأثر اللَّه بعلمه، وإنما اشتغالُهُ بما

---

(١) رواه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري، (٣٥٢/١١ ـ فتح)، ومسلم، (١٩٤/٢ ـ نووي).
(٢) رواه الإمام أحمد (١٣٣/٣ ـ ١٣٤)، (١٦٧١)، وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».
(٣) «تفسير القرآن العظيم»، (٣٧١/٣).
(٤) رواه الإمام أحمد، (١٧/٩ ـ ١٨)، (٦١٦٠)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر.
(٥) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي، (٢٣١٨)، وابن ماجه، (٣٩٧٦)، وحسَّنه النووي ـ رحمه اللَّه ـ.

يعنيه في هذا الباب بأن يجتهدَ في الإعداد للساعة والتهيؤ لها، وبخاصة الساعة الخاصة به[(١)]؛ وهي لحظة موته؛ ولذلك لما سأل رجل النبي ﷺ: «يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَتَى السَّاعَةُ؟» لم يلتفت إلى سؤاله، وأرشده إلى الاشتغال بما يعنيه، وهو قوله ﷺ: «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»[(٢)] ... الحديثَ.

لقد قال اللَّه ـ تعالى ـ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]، فلم يجعل اللَّه ـ تعالى ـ لعمل المؤمن أجلًا دون الموت، فما دام في المؤمن عرقٌ ينبض بالحياة فهو مكلف بالعمل الصالح، بغض النظر عما يتوقعه من أشراط الساعة، واللَّه ـ تعالى ـ أعلم.

* * *

(١) وهي التي قال فيها ﷺ: «بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سِتًّا» ذكر منها: «وَخُوَيْصَةِ أَحَدِكُمْ»؛ أي ساعة موته الخاصة به، وعن أم المؤمنين عائشة ـ رضي اللَّه عنها ـ، قالت: «كان الأعراب إذا قدموا على رسول اللَّه ﷺ سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم، فقال: «إِنْ يَعِشْ هَذَا، لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ، قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»، رواه مسلم، (٢٩٥٢)؛ يعني يموت ذلك القرن، أو أولئك المخاطبون، وانظر: «فتح الباري»، (١٠/٥٥٦).

(٢) رواه البخاري (٦١٦٧)، (١٠/٥٥٣)، ومسلم (٢٦٣٩)، (١٦٣).